الياس ادريـــس

الإرهـــابـــيّ

عربات الموت المجنونة. صخب بني آدم يتجمهر في رأسي. أشلاء آدمية تتناثر حول مقاعد عربات الموت. أشعر بدوار وأمد يدي نحو تلك التي تضحك الآن. كانت تضحك ونحن ننزل الأدراج. وكانت تضحك ونحن نجلس أو نناقش أو نضحك. أشعر بدوار. وحين أغمض عيني تأتي بِذْلة وتخاطبني بعنف. أرى يدين عملاقتين تتحركان بعنف في غضب وأنا أحاول أجد لغة للتفاهم. لكنها لا تمهلني. تقبض على عنقي وتدفع بي داخل سرداب مظلم. طويل وبارد وذو رائحة كريهة. أنا أخاف وأحاول أصرخ. وهي تدفع بي عيمقا نحو تلك الأغوار التي لانهاية لها. بِذْلة ثانية زرقاء تأتي وتسأل ما حدث. ثم يمضيان إلي وأرى البُصاق يتطاير من الشفاه. أبحث عن بقايا الكلام الذي انزلق إلى الداخل. أحاول أصرخ وأجد في وسط غابة من البذلات الزرقاء. وعلى يمين صدر كل بذلة زرقاء علامة صفراء وكتابة بحبر أسود. كأنهم البوليس. أو كأنهم شيئا يشبه البوليس، وهم ليسوا كذلك. أو كأنهم بوليس من نوع آخر. ولكن البوليس هو البوليس وليس شيئا آخر. لا شيء يشبه البوليس. و لا بوليس الا البوليس. الشيء الوحيد الجدير بأن يشبه بالبوليس هو البوليس. وهي تضحك. كنت أناديها بالتليفون من البيت الذي أسكن فيه ولا أملك فيه شيئا فأسمعها تضحك. تقول أتجيء وتجيء وتضحك. كان الصديق الذي سلفني السرير والسقف قد سافر فبقيت هناك أحلم ببحار ميتة وعصافير بلا أجنحة. وكانت هي تتحدث عن الملائكة وتضحك. كل الملائكة البيضاء والملونة أراها ترقص بين يديها الفضيتين. تضحك. أحس دواراً وأمد يدي الى يديها فيغمرني دفء مفاجئ. وأنا لا أسمع. هي تتكلم وتضحك وأنا أحاور الملائكة التي توجتها ملكة. سنة سعيدة تقول. وأنا، أية كواكب مضيئة سأصنع لأهديها لها، أية أغنية شفافة ومدهشة سأُنْحِتُ لها. تقف. تقول سأمضي وتضحك وتمضي. أفتح عيني. آدميون بلا رؤوس وعربات مجنونة. مغاور سوداء ولا نهاية لها. أجري. الباب الزجاجي ينفتح أوتوماتيكيا ويقذف بي الى سرداب أجري فيه حتى نهايته. باب آخر ينفتح، أنا أدخل وهو ينغلق لذاته. آدميون بلا رؤوس يفعلون نفس الشيء. كأن الواحد فيهم يقلد حركات الآخر. نجري. كلنا نجري بلا هدف. وكلنا نقف. والأبواب دائما. السراديب دائما. والضجيج والعيون الغبية. أحب العشب والماء ولقاءات المصادفة. صرخت ولا أحد يجيب. أجري وأقول أحب الشمس والعشب والماء ولقاءات الصدفة. ولكن البذلات تأتي. الملائكة البيضاء والملونة تتراجع وتأتي

البذلات الزرقاء. تدق الباب وأقول ادخلي ولكنها تقف هناك ولا تدخل. أفتح الباب وتدخل وتضحك. أنا أحب الماء والشمس والعشب ولقاءات المصادفة ولا أحب البذلات الزرقاء والسراديب المظلمة تقذف بي إلى سراديب أكثر ظلمة. ولكن البذلة هي التي تأتي. إذن لم يعد أمل. إذن لم يعد من مخرج. إذن لم يعد. أجري وأدخل بابا مفتوحا. ينغلق بآلية، تمضي بنا العربة التي تجر عربة تجرها عربة أخرى تجرها عربات أخرى. أقف مع الواقفين وأملأ صدري بالهواء الفاسد. المكان فاسد وأنا متعب وأريد أن أنام. أنام. أسترخي فوق مقعد جانبي وأغمض عيني وأنسى. طبعا لا أنسى كل شيء. أنسى أنني هنا ثم حين أفتح عيني وتقف العربة ويخرج الآدميون من هواء فاسد إلى هواء فاسد، أتذكر. تحضُرني وجوه كنت أعرفها، من الطفولة أو من ليلة أمس. يعني أنسى ولا أنسى. أتذكر ولا أتذكر. ثم تنغلق الأبواب ثانية فأنام وأراهم يحتقرون الآخر الذي أنا. الاحتقار متبادل والحوار غائب وأنا أقفز فجأة مع الذين قفزوا خارج الباب. أجري كما يفعل الجميع. أعيش الهواء الفاسد كما يفعل الجميع. وفوق هذا، أنام ليلا وأستيقظ في النهار وأشم وأرى وأضحك وأتغوط وأبول وأحزَن وأفرح وأكتب وأحلم كما يفعل الجميع. ليس الجميع يفعل هذا. وأنا من بين الجميع الذي يفعل بعضا من هذا. ومع ذلك فالبذلات الزرقاء هي البذلات الزرقاء. أوراقك ؟ من أنت ؟ منذ متى وأنت ؟ إلى متى ؟ هل أنت مغربي حقا ؟ ما هذه البقعة في جواز سفرك ؟ والبذلة الزرقاء الأولى تقلب الأوراق وتتحدث بلغة الجن ومع البذلة الثانية. ثم. هل أنت فلسطيني، تعال، تحقيق بسيط. إذن لا يهم أن أكون البعض من الجميع الذي يفعل البعض من هذا. أكونه أو لا أكونه فأنا هو الآخر المرفوض في الهواء الفاسد والبذلات الزرقاء. أنا الإرهابيّ وهم. ماذا هم ؟ لهذا جريت داخل الدروب تحت الأرض باحثا عن منفذ. خرجت. تنفست ومشيت وكانت الأجساد الآدمية تنبثق من تحت الأرض وتتنفس وتمشي. أتفرج على المقاهي وتتفرج الوجوه العمياء على هذا المتفرج الآخر والوجوه العمياء دائما على عجل، حتى ان لم تكن كذلك. ثم يأتي الضجيج والسيارات والبذلات الزرقاء واعلانات الموضة وأفلام الجنس. يجب أن تذهب معي. قال. وأنا أقول له لا يهمني. أنا لست ضدك. إفْعَلْ ذلك أنت إذا أردت. أنا لا أريد. لا ألومك ولا أقمعك. أنا لا أنام مع الرجال، هذا كل ما هنالك. أنا أريد أن أغامر وأحب الفراشات المهاجرة في جسدي. أن أحلم ولا أتعثر في الحجر الذي يتحول إلى بذلة زرقاء وهل أنت حقا ؟. ثم. انظر إلى وجوههم، كلهم من عندنا، عرب أو أفارقة. كلهم آخر. يدخلون الى هذه الغرف المزينة بصور الجنس ويضعون القطعة النقدية داخل الثُّقب وتمتلئ صدورهم بالشهوة ثم لا شيء. القطعة النقدية تنزلق خارج الباب وتقطع الطرق والدروب والسراديب والأبواب التي تنفتح وتنغلق لذاتها، لتستقر في البنك. ومن البنك تخرج من جديد لتستقر في جيب بذلة زرقاء. والبذلة الزرقاء تأتي إلى هنا وتنتظر أن تحدث معركة وترمينا بعيدا، أو تسألنا

كيف ومتى ؟ أنا لست ضد. هذا حقك. هل رأيت، أنا لست ضد، ثم إنك مثقف غربي وترى العالم بشكل آخر. هل فهمت ؟ وهو يدخن، ويفهم. هل تحب النساء ؟ يسأل. طبعا أحب النساء. ضحكت. أحب أمي وأحب الطفلة الصغيرة، التي تحاكم العالم ببساطة. ثم أحبها هي. تلك الأولى التي تزوجت. طبعا أحببت الثانية وأحببت. ثم سافرت وها أنا الآن أجيب مثقفا آخر في باريس. ضحك. ضحكت أيضا. وتذكرت ضحكتها. تقول صباح الخير وتضحك وتجيء. تقول ليلة سعيدة وتضحك وتمضي. أحاول أن أكتب فلا أستطيع. أخرج وأدق باب غرفتها فتفتح لي وأدخل وأجلس وتضحك. تصنع القهوة وتضحك. دائما تضحك. في البهو وفي الدَّرَج وفي الساحة وتحت المطر. أقول سأمضي فتضحك وأمضي. لهذا السبب سأخرج في الليل وأتسلق شجرة عالية وأسأل نجمة خضراء لماذا تضحك حين أقول لها عن الأصدقاء في مدينة الاشتغال والعزلة. ولهذا السبب يأتي البرد حين ألامس يدها ولهذا السبب ولهذا السبب ولهذا. ثم أنا مللت، قلت مللت، السراديب والدروب والأبواب تحت الأرض. الإعلانات والموضة الجواز المصادر. مللت. نلتقي في غرفتي، غرفة صديقي الذي سلفني، أو في غرفتها. مللت. لهذا السبب كنت أريد أن اصرخ بعد انتهاء الفيلم أن فاسبندر مات في نهاية الشريط. هي تقول لا وتضحك. ولكنني رأيته يتسلل من الشاشة، يخفض رأسه ويمضي. هي تقول لا. أما أنا فقد شاهدته يموت. لذلك لم ينته الفيلم والمطر الذي سقط في الشاشة تسلل من النافذة وغمر الأمكنة الفاسدة بدموع مرة وباردة. وكانت هي تجري في الساحة وتضحك. أنا أراه يمشي بين الاشجار، شاردا ورماديا ويدخن وينظر في عتاب إلى الشجر الذي لا يحب العصافير والمطر الذي لا يحب السنابل والمرأة التي تضحكها الحكايات الحزينة. مللت. لهذا السبب من غرفتي إلى غرفتها ومن فنجان قهوة مرة في بيتي إلى فنجان أكثر مرارة في بيتها. وحين أمل أناديها. كانت نائمة فقلت لها معذرة لكنها ألحت، سأجي حالا، لا بأس تقول. تضحك وتطير وتأتي. تدخن وتشرب القهوة السوداء وتدخن. نتكلم ونتكلم. ثم ندخن ونشرب القهوة وندخن. الثانية ليلا. كان المطر الذي هرب من الشاشة قد انتقل الى الأجساد والعيون. والكلام المصادر والرغبات الدفينة. قلت كلمات غريبة فضحكت. أنا باردة. جلست قُبالتي ووضعت قدماها تحت البطانية. كنت متعبا، مستلقيا على السرير وكانت قدماها تحت بطانيتي. كانت تضحك. وكنت أفكر فيهم وكان صمت الليل الرهيب يأتي من أعين رجال وحيدين ويلف الأمكنة كلها. يضع حاجزا بيننا. أدخن وأريد أن أهرب الآن وأدخن. وكانت هي تضحك. الوقت يمضي وهي تضحك. قدماها تحت البطانية. تضحك، أدخن ولا شيء أكثر من ذلك، صدقوني !

باريس ــ يناير 83.